الاوبرا من الطقوس الدينية إلى الدراما السياسية

يعتبر عصر الباروك من (1600 إلى 1750) مولد فن الاوبرا هذا الفن الذي يجمع بين الدراما والموسيقى والحواريات الغنائية في تمازج فني متكامل. وينسب أصل هذا الفن إلى تمثيليات الأسرارالدينية للعصور الوسطى، والتي كانت تسرد تاريخ سيدنا المسيح ومعاناته، وتصف البعث والخليفة وإلى الحواديت الريفية والفواصل المسرحية الشعبية التي كانت في الأصل مشاهد بسيطة تدرج وسط التمثيليات الاحتفالية الكبيرة. وفي المجتمعات البدائية كانت الطقوس الدينية ذات طبيعة درامية حيث الصراع يتمثل بين القوى البشرية والطبيعة أو بين الإنسان والكائنات الأخرى وهي خالية من النصوص المدونة. كما كانت الدراما في المسرح الشرقي القديم اوبرالية، فيكون الحوار غنائيا و تصاحبه الموسيقى والرقص بهدف الارتقاء بالدراما إلى العبادة الدينية. والهدف نفسه كان مقصودا من استخدام الشعر في الدراما المسيحية في القرون الوسطى واستمر كذلك في تراجيديات عصر النهضة والعصر الكلاسيكي، حيث كان تمجيد البطولة، بصورمختلفة، هو جل اهتمام هذه الحواريات.

حدد المؤرخون مفهوم فن الاوبرا في العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر، وكان ذلك في إيطاليا وفي مدينة فلورنسا على وجه التحديد. وتجد ذلك في قيام مجموعة(الكاميراتا) (Camirata) في البحث عن كيفية إحياء فن المسرح الإغريقي الذي أصبح دور الغناء والموسيقى فيه يشبه الزخرفه التي تتوسط الحوار المنطوق في الدراما، وهدفهم الآخر كان توسيع رقعة انتشارهذا الفن ليخاطب قاعدة جماهيرية عريضة وليس السادة فقط. كما كانت دعوتهم للعودة إلى المونوفونية (Monofonic) وذلك بالتعبير عن فقرة كاملة من الشعر بنغمة موسيقية واحدة بأسلوب التلاوة أو الغناء المرسل (Recitativo)، وقد تلخصت فلسفته بأن الموسيقى ذات الصوت الواحد(Unisson) تحرك المشاعر بواقع أعمق من الأصوات المتعددة البوليفونية التي تسمع في آن واحد(Polyphonic). وعلى ضوء ذلك انتقل هذا الاتجاه من فلورنسا إلى فينيسيا حيث تم افتتاح أول دارللاوبرا عام 1630 وأصبحت تلك الدار مركز الإشعاع الموسيقي الذي انتقل فيما بعد إلى روما ثم إلى جميع عواصم أوروبا.

تنسب الاوبرا إلى مؤلفها الموسيقي وليس إلى كاتب القصة أو الشعرعايدة للمؤلف الموسيقي (Verdi) و كارمن للمؤلف الموسيقي (بيزيه)، وقد نتج عن الصراع والتجاذب بين الكلمة والنغم في العمل الاوبرالي ، وقد لعب المؤلف دورا كبيرا في رجوح كفة النغم مثل مونتي فيردي 1567-1643 وهو من أشهر المؤلفين الموسيقيين في القرن السابع عشر، قاد حركة تجديد ضد الأساليب القديمة في الغناء حيث كانت النغمة مجرد

زخرفة للكلمة، وأعطي الموسيقى دورا رئيسيا في إثارة المشاعر وتعميق المعاني وأخذع الشعر للموسيقى كما أعطى للموسيقى، في العمل الأوبرالي، دورا تعبيريا يصور آلام البشر وعجز الإنسان عن طريق صياغة مبتكر للعبارات الموسيقية. جاء بعده دومونيكو سكارلاتي (1658–1725) حيث الف زها 115 اوبرا، على عكس جماعة الكاميراتا، وأعلى سكارلاتي من شأن الموسيقى وتجنب الإضافات الزخرفية وتميز أسلوبه بالرشاقة والرقة. أما Vivaldi فقد كتب حوالي 50 اوبرا. وقد انتشر مؤلفو الموسيقى الإيطاليين في معظم العواصم الأوروبية. وجعلت طبيعة اللغة الإيطالية، والتي غالبا ما تكون نهاية كلماتها الحوارية بحرف علة، حيث جرس الكلمة موسيقي مطواع، إضافة إلى التعبيرية التي تزخر بها هذه اللغة.

انتشر مؤلفو الاوبرا الإيطاليين في معظم دول أوروبا، وعلى سبيل المثال، فقد كان منهم حوالي 80 مؤلفا في لندن وحوالي 100 في فيينا و25 في بيترسبورغ و50 في باريس.

وبهذا تكون أوروبا قد تأثرت بأسلوب الاوبرا الإيطالية وشكل الغناء المسمى(Bel Canto) أي الغناء الجميل والألحان المزودة بالمحسنات الجمالية ذات الصياغة المتقنة. ولابد لنا أن نذكر هنا رائد الحركة الكلاسيكية في مجال التاليف الأوبرالي روسيني(Rossini) وهو من أهم المحافظين على التقاليد الإيطالية من حيث الاهتمام الشديد بصياغه الألحان الشيقة والغناء الزخرفي المطول الذي يبرز بإبداعاته الأدائيه وتقنية المغنين ويستغل بفكرة الموسيقي مساحة أصواتهم إلى أقصى مدى.

ويعد جوزيبي فيردي (1813 –1901) من عظماء مؤلفي القرن التاسع عشر حيث هذب في أوبراته بعض الألحان الشعبية وأنعش الروح القومية الإيطالية. فكان يخاطب في موسيقاة القاعدة العريضة وليس فقط الصفوة المثقفة، وكانت اوبراته ذات طابع أعمق وتكوين فني أكثر إبداع وتماسك مما رفع الاوبرا الإيطالية إلى مستوى عال من القيمة الجمالية والعظمة فكان Verdi الوريث المخلص للاوبرا الايطالية التي بدأت منذ عصر بلاسترينا وقد فهم فردي وتلمس بحس عميق الظلال المشتركة بين الشعر والنغم، فقد كان شديد الإعجاب بشكسبير، حيث قام بتحويل بعض مسرحياته إلى اوبرا مثل: ماكبث وعطيل، وكتب فيردي ما يقارب 30 اويرا.

وبينما كان فردي في إيطاليا يهدف إلى إسعاد الناس بألحانه العذبة وإلى بث روح الوطنية في الشعب الإيطالي كان Vagner في ألمانيا يتمتع بهتاف الشعب له في (بايرويت) حيث قام له ملك بافاريا مسرحا لتقديم اوبراته بوصفه الرسول الجديد للموسيقى الألمانية. وفي ذات الحين أيضا، وبينما كان فيردي يتربع على عرش الاوبرا في إيطاليا ظهر Vagner الشاعر والمؤلف الموسيقي والفيلسوف الألماني الذي كان

يعالج التناقضات في النفس البشرية ويكسوها بغلاف أسطوري، فظهر منافسا لفيردي باوبراته (ذهب الراين) و (تنهاوزر) وغيرها.

ولما استقر في فينا معظم عظماء الموسيقى وعلى راسهم هايدن وموزات وبيتهوفن، أصبحت فيينا، ولمده قرن من الزمان، مركز الإشعاع الموسيقي وتم افتتاح المسرح القومي الذي قال عنه الملك جوزيف الثاني أنه إحدى وسائل بناء الشعب وتثقيفه. وقد كتب موزارت، الذي تأثر بالإيطالية، حوالي 20 اوبرا، كان اشهرها زواج فيجارو ودوون جوان و الناي السحري.

نمت الروح القومية عند الروس بعد احتلال الاوبرا الإيطالية مسارحهم، والسيمفونية الالمانية قاعات الكونشرتو. فظهرالمؤلف القوميون، مثل (بلاكيريف) و (غلنك) الملقب بابي الموسيقى الروسية، فكتب اوبرا (إيفان سوسانن) التي قدمت عام 1836 بعد تغيير اسمها إلى (الحياة من أجل القيصر) وتبعه على مسار القومية المؤلف الموسيقي الشهير (موسورسكي) في اوبرا (باريس غودونوف)، واستلهم التراث الشعبي من بعده ريمسكي كورسكوف في حوالي 15 اوبرا كان أهمها (سادكو).

وأما حديثا فقد لاقت اوبرا (المصير الواضح) جدلا عنيفا على أحد مسارح لندن، وقد الف موسيقاها الإنجليزي (كيث برشتاين) وكتب نصها (دك ادواردز). وهي تتحدث عن التشدد الإسلامي، وتدور حول البنت ليلى التي كادت أن تصبح استشهادية وتريد تفجير نفسها انتقاما لقتل والدها الفلسطيني، لكي ينتهي بها الحال إلى الاعتقال في سجن غوانتانامو على يد الأمريكان. وهذه الاوبرا الاجتماعية، التي تأخذ شكل الدراما النفسية، تعتبر عملا سياسيا مباشرا، حيث تتضمن تقليدا ساخرا لكلمات الرئيس الأمريكي جورج بوش ولرئيس المخابرات المركزية الأمريكية. وبذلك تظهر القوة الخفية فيما ما وراء النص والأحداث الأوبرالية التي تتعدى الجمال الغنائي والتشويق إلى عكس الواقع السياسي العالمي.